الفصل الأول

التربيــة بالنــداء فــي الـقــرآن الكريــم

تمهيد:

إنَّ القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى ، وهو الينبوعُ الثَّرُّ الذي ينهل منه البشرُ في كل آنٍ ، فيجدون في ظلاله الأمنَ والسكينة ، ويقتبسون من أنواره كبيرَ المعرفة ، وجليل الفائدة .

وقد رأينا ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن نضعَ هذه الدراسة حول التربية القرآنية من خلال أسلوب النداء؛ نَظَراً لدوافع كثيرة تُبرز أهمية الموضوع ، فمن ذلك :

* إثارة العواطف ، وحثّ الانفعالات؛ لتوجيهها ، وتعميق الفكرة في الضمير الإنساني .

* دَفْع السامع والقارىء إلى معرفة ما سيأتي من أَمْر أو نهي ، مما يجعله في حالة تأهُّب نفسي .

* تربية الأحاسيس الربانية كالتقوى ، والعبادة ، والإخلاص . . .

* التعبير الموحي بِنَبْذ سلوك الكافرين والمنافقين وآرائهم .

* تربية العقل والتفكير المنطقي ، فأغلبُ النِّداء في القرآن الكريم خطابي .

* تعزيز العقيدة الدينية ، والحبّ لله تعالى ، ودَعْم الموقف بالحجج القاطعة .

* إيقاظ الانتباه عند السامع والقارىء للتأمُّل في المعنى ، والتَّدبُّر في المواقف ، والتأثُّر بالموضوع .

* النداء في القرآن الكريم يتعامل مع النفس الإنسانية ، فهو واقعيٌّ ، مُتَّزن ، يهتمُّ بالصدق والبعد عن الغلواء والجنوح .

* إثبات فكرة أنَّ الله تعالى مع المؤمنين ، يرحمهم ، ويغفر لهم ، وينجيهم من الأزمات ، وأنه تعالى يخذلُ الكافرين ، ويدحضُ ما يأتون به .

* تذكير المؤمنين بأهمية الدَّور الذي يقومون به ، ووعظهم؛ ليبقوا على جادَّة الصواب .

* تربية عواطف الخضوع لله تعالى ، والخوف منه ، والإذعان لأوامره ، والانقياد لتشريعه .

* جَعْل المؤمن يتجنَّب الضَّرر ، ويسعى لما يُحقِّق له السعادة في الدنيا والآخرة .

إلى ما هنالك من أساب تدفع الباحثَ للدراسة؛ إرضاءً لله عز وجل ، وخدمةً للقرآن الكريم ، وعَوْناً لشداة العلم وطلَّاب المعرفة ، وهم يغذُّون السير على الطريق الحق . وقد أدرك الصحابةُ الكرام هذه المعاني إدراكاً جيداً ، فعملوا على تمثُّلها في واقع حياتهم ، في العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين ، وما بعده ، فكانوا خيرَ صَحْب مؤمنين ، ودعاةٍ عاملين .

وفيما يلي دراسة لنداء القرآن ، والأصول التربوية فيه .

(أ) نداء الرب عز وجل :

يُشكِّل نداءُ الرب عز وجل حيِّزاً واسعاً في القرآن الكريم ، حيث نجد الإنابة والخشوع ، والالتجاء إلى الركن المتين بقوَّته وعزَّته ، دُعاءً يُعبِّر عن التأثر العميق ، وإعلان الإيمان بالخالق العظيم : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] .

فالدُّعاءُ مُخُّ العبادة ، ففيه تضرُّع وخضوع لله تعالى ، وذِكْر صادق ،

وطَلَبُ قضاء أمرٍ من الأمور ، وقد أمر اللهُ عز وجل عبادَه بالدعاء والذكر ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولا نجدُ أجمل ولا أروع من ساعة إنابةٍ ، يتوجَّه فيها المؤمنُ بقلبه إلى ربِّه ، يرفع يديه إلى السماء ، بفؤادٍ واجف ، ولسان ضارع ، في لحظة كَرْبٍ وضيق ، فإذا بالنداء يتوالى هاتفاً : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ثم جاء قوله تعالى مرشداً المؤمنين كي يدعوا ربَّهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦][1] .

فهذا الدعاءُ رحلةُ الإنسان الضعيف ، الملتجىء إلى قوَّة ذي العرش المكين ، أنْ يمحو الذنوب ، ويُخفِّف الأعباء ، ويعفو ، ويصفح ، ويرحم ، ومَنْ أجدرُ مِنَ الله استجابةً لعباده المؤمنين؟!

وفي الدُّعاء اتصال بالرب عز وجل ، واعترافٌ بالذنب ، وندمٌ على ما بَدَر من الإنسان ، واستعانة بالقوة الإلهية على مشاقِّ الطريق ، وطلب الرحمة ، مع الاعتقاد الجازم بأنه لا معين إلاَّ الله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وحين يشتدُّ الطغيان محارباً الذين آمنوا ، فإذا بأصحاب العقيدة يدعون خالقهم ، طالبين منه منحهم الصبر على الصعاب ، والتجالد في الأزمات ، ومهما اشتدَّ الوعيد؛ فإنَّ المؤمن يحتمي بخالق السماء والأرض ، ولسان حاله يقول : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] . كذلك فإنَّ المؤمن يتَّجه إلى الله يطلب الرحمة والمغفرة ، في خشوعٍ وتبتُّل ، راجياً

---

(١) ﴿ إِصْرًا ﴾ : عِبئاً ثقيلاً ، وهو التكاليف الشاقة . ﴿ لَا طَاقَةَ ﴾ : لا قُدْرة .

الفَلَاحَ مِمَّن بيده مقاليد كلّ شيء: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

ومِنْ سِمات عباد الرحمن أنَّ قلوبهم مُعلَّقة بالله، ممتلئة بتقواه، تخشى العذاب، وتأمَل الغفران، يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥][١].

فالخوفُ من النار دليلُ الإيمان واليقين، وهاهي جموعُ المؤمنين تتَّجه إلى الله في ضراعة وتوسُّل؛ ليبعد عنهم عذاب جهنم، وينجيهم من هولها، بينما أفئدتهم تخشع فَزَعاً من قوة الله تعالى، وغضبه.

ومِنْ سمات عباد الرحمن أيضاً أنهم يبتغون ذرية صالحة، تنهج نهجهم؛ لتطمئن قلوبهم، ويستمر خطُّ الإيمان في الأرض، فهم يرجون ذلك من الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤][٢].

وهذا الدعاءُ فطريٌّ في نفس المؤمن، رغبةً منه في الخير؛ لتقرَّ عينهُ برؤية العقيدة تنداح في نفوس الصالحين من ذريته الطيبة.

ويُفوِّض النبي إبراهيم عليه السلام أمره لله تعالى، ويُنيب إليه؛ خاشعاً، راجعاً: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا الدُّعاء تسليمٌ لله، وتوكُّل عليه، وإبراز لوشيجة الإيمان المتميِّزة باليقين، والالتجاء للرب عز وجل بشعور إيماني فيَّاض، ينسرح في رحاب العقيدة المتغلغلة في أطواء النفس.

والمتتبِّع لنداء الرب عز وجل في القرآن الكريم؛ يجد أنه تكرَّر أكثر من مئة وخمس وعشرين مرة، وهذا عدد ضخم، وما ذلك إلا إبراز لقدرة الله تعالى، وضرورة الالتجاء إليه في كل حين، ومناداته في مختلف الأوقات،

---

(١) ﴿كَانَ غَرَامًا﴾: لازماً أو ممتداً؛ كلزوم الغَريم.
(٢) ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: مَسَرَّة وفرحاً. ﴿إِمَامًا﴾: قُدوة وحُجَّة، أو أئمَّة.

فالله قريب من عباده؛ يسمع ، ويرى ، ويحب أن يُنادَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

ولمَّا كان المؤمن لا يستطيع بلوغَ الكمال في عبادة الله تعالى ، فإنه يدعو ربَّه ليغفر له ذنوبه؛ فالله سُبحانه قد أعطى الإنسانَ النِّعم الوفيرة ، وفضَّل عليه بآلائه الكثيرة؛ لذا لا تبلغ العبادة ـ مهما سَمَتْ ـ درجةً توافي نِعَم الله تعالى؛ ومِنْ هنا يرجو المؤمن مِنْ ربِّه الاستغفار : ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة : ٥] .

وفي هذا تربية للاستسلام لرب العالمين ، وحنين مُلِحٌّ دائم ودود بين الرب عز وجل ، وبين عبده المؤمن الذي لا يفتأ يذكر الله تعالى ، تائباً إليه ، راجياً أن يُكفِّر عنه السيئات ، ويدخله الجنة برحمته .

وقد دعا الأنبياءُ ربَّهم ، وطلبوا منه أشياء متنوعة ، فَلْنَسِرْ معهم في رحلة الشوق إلى الله ، والإنابة إليه سُبحانه ، ففي ذلك تربية للمتعلِّم ، وأيّما تربية .

فها هو النَّبيُّ إبراهيم عليه السلام يدعو ربَّه أن يجعل مكَّة بلداً آمناً ، لا يُسفك فيه دمُ إنسان ، ولا يُظْلَم فيه أحد ، ولا يُصاد صَيْدُه ، وأن يرزق أهله الرزق الطيب : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

ثم دعا ربَّه ـ بعد أن فرغ من عمارة الكعبة ـ أن يجعله اللهُ تعالى منقاداً لأوامره ، مستسلماً لطاعته ، وأن يُعلِّمه شرائع العبادة ، ويتوب عليه وعلى ذريته : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨][(١)] .

ودعا النبيُّ موسى عليه السلام ربه؛ حين عصاه بنو إسرائيل ، ورفضوا

---

(١) ﴿ مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ : منقادين خاضعين مخلصين لك . ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ : عَرِّفْنا معالم حجِّنا ، أو شرائعه .

الانصياع لأحكام الدين ، فأناب النبيُّ إلى ربه ، وطلب منه العون والمساعدة؛ ليقود القومَ إلى الطاعة : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وحين استضعف بنو إسرائيل هارون عليه السلام؛ غضب موسى: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وساعتئذ دعا موسى ربَّه ، وندم على فعلته بأخيه ، وطلب المغفرة والرحمة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وحين حدث الطوفان ، أبى ابنٌ للنبي نوح عليه السلام أن يؤمن ، و﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣]. فلما أمطرت السماء ، ونبعت الأرض ، وصار الموجُ كالجبال ، دعا نوحٌ ربَّه أن ينجي ابنه ، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] وهنا صحَّح اللهُ تعالى وجهة نظر نوحٍ عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وهنا أدرك نوحٌ عليه السلام سوءَ ما طلب ، فدعا ربَّه ، واستعاذ به ، وسأله المغفرة والرحمة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ويعرض القرآنُ الكريمُ تربية العفة من خلال محاولة امرأة العزيز مراودة النبي يوسف عليه السلام عن نفسه ، ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣] فيأبى النبيُّ الشابُّ ، ويستعصم بإيمانه ، فما كان منها إلا أن هدَّدتْ بسجنه وإذلاله ، وهنا بيَّن النبيُّ الكريمُ أن السجن أحبّ إليه من ارتكاب الذنب ، ودعا ربَّه أن يصرف عنه كيد النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣][1].

(١) ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أمِلْ إلى إجابتهنَّ.

وفي جوف الليل دعا النبي زكريا عليه السلام ربَّه ، شاكياً حاله ، يطلب أن يرزقه ولداً صالحاً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤ ـ ٥][1] فاستجاب اللهُ تعالى دعاء عبده المؤمن ، فقال تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] .

وفي مكة المكرمة نادى رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يشهد حاله ؛ إذْ لم يقصِّر في دعوة قريش للإيمان ، ولم يألُ جهداً في إنذارهم ، لكنهم أعرضوا وأدبروا : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

وقد تفضَّل اللهُ تعالى على النبي سليمان عليه السلام ، وأعطاه مُلْكاً عظيماً ، فدعا النبيُّ سليمانُ ربَّه ، شاكراً نعمته ، سائلاً رحمته ، وفي هذا تربية على ضرورة شكر النعم : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩][2] .

(ب) نداء الملائكة :

نادى اللهُ تعالى الملائكةَ ليُطلعنا على طاعتهم المطلقة ، وخصائص طبيعتهم المنفِّذة لأوامر الله عز وجل ؛ إذْ قال لهم اللهُ سبحانه : ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [الأعراف : ١١] . . . أمرهم فنفَّذوا ، ودعاهم فلبّوا ، وتلك طريقتهم التي أنشأهم الله تعالى من أجلها ؛ عدم عصيان الله فيما يأمرهم به ، خلافاً لإبليس الذي ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] فطبيعته مجبولة على التمرد ، والعصيان ، والامتناع .

---

(١) ﴿ وَهَنَ ﴾ : ضعف ورق . ﴿ شَقِيًّا ﴾ : خائباً في وقتٍ ما . ﴿ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ : أقاربي العصبة ، وكانوا شرار اليهود . ﴿ وَلِيًّا ﴾ : ابناً يلي الأمر بعدي .

(٢) ﴿ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ : ألهمني وحرِّضني واجعلني .

ومن خلال تتبُّع نداء الملائكة في القرآن نجدهم مثال الطاعة ، ونموذج التسليم ، وعدم الاعتراض على ما يُؤْمرون به من قِبل الذات العلية الإلهية ، فعندما أراد اللهُ تعالى أن يخلق آدم؛ لتنفيذ أحكام السماء في الأرض ، أحسَّ الملائكةُ بأنَّ بني آدم سيعصون الله ، ويُعْرِضُون عن ذِكْره ، بينما الملائكةُ خَلْقٌ يُسبِّح بحمد الله ، ويُنزِّه الخالقَ عمَّا لا يليقُ به ، فكأنَّ الملائكة شعروا أنهم أحقّ بحمل الأمانة ، والقيام بأعباء تكاليف الاستخلاف: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وجاء في تفسير الجلالين: «﴿ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم ، وأنَّ ذريته فيهم المطيع والعاصي ، فيظهر العدلُ بينهم ، فقالوا ـ أي: الملائكة ـ: لن يخلقَ اللهُ خَلْقاً أكرم عليه منّا ، ولا أعلم؛ لسبقنا له ، ورؤيتنا ما لم يره ، فخلقَ اللهُ تعالى آدم من أديم الأرض ـ أي: وجهها ـ بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها ، وعُجِنَتْ بالمياه المختلفة ، وسوَّاه ، ونفخ فيه الروح ، فصار حيواناً حسَّاساً بعد أن كان جماداً»(١).

وهكذا تمَّ خَلْقُ آدم؛ الذي علَّمه اللهُ تعالى أسماء الأشياء ، ثم طالَبَ تعالى الملائكةَ أن يخبروه بأسماء المسمَّيات ، فإذا بهم يرفعون لواء الطاعة ، ويدركون أنَّ الله عز وجل يعلم ما لا يعلمون ، وهو سُبحانه حكيم يضع الأمور بدقة وإحكام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

وفي هذا وغيره من الآيات دلالة واضحة على عظمة الله تعالى ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن طاعة مولاهم ، فبمجرَّد أن يأمرهم ربُّهم يُبادرون

(١) تفسير الجلالين (٦).

مسرعين لتنفيذ ما أمر به ، وهذا هو منهجهم ، وتلك هي طريقتهم لا تختلف.

(ج) نداء الذين آمنوا:

جاء الإسلامُ ليبين الحياة بشكل كامل ، ويُنظِّم واقع الإنسان تنظيماً دقيقاً في مراحله المختلفة ، فأكَّد على العلاقات ، والآداب الاجتماعية ، والتكاليف... وجَمَع بينها في اتجاه سليم يرتقي إلى الله تعالى في خاتمة المطاف.

ولمَّا كان المؤمنون مُؤسِّسي نظام المجتمع الإسلامي ، كان لا بُدَّ من خطابهم ، وإرشادهم ، وتوجيههم ، ورسم الحدود لهم ، وتعليمهم ، وبَعْث الوازع الأخلاقي في نفوسهم ، وتربية الضمير الديني في صدورهم.

وأخلاقُ الإسلام عملية ، وعلاقاته اجتماعية ، وتكاليفه معتدلة ، وآدابه تطبيقية ، ترسم نشاطَ الإنسان في ميادين الحياة المتعدِّدة ، بينما يشعر المؤمنُ بالواجب المُلْقى على عاتقه ، وهو يغذُّ السير على طريق الله بإخلاصٍ ووفاء.

وقد خاطب القرآنُ المؤمنين ، وأرشدهم ، وبيَّن لهم الأحكام ، واهتمَّ كثيراً بتربية أخلاقهم؛ عن طريق الأمر ، والنهي ، وبيان المباحات.

أولاً: الأوامر:

ومنها:

* الثبات والصبر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

* القدوة الحسنة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

* التحفظ في الأحكام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ثانياً: النواهي:

ومنها:

* أفعال تُناقض الأقوال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣][1].

* النهي عن أكل الربا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

* عدم موالاة الكافرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ [النساء: ١٤٤].

ثالثاً: المباحات:

ومنها:

* التَّمتُّع بالطيبات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

ومن الأخلاق التي اهتمَّ بها القرآنُ بشكل عملي؛ ما يتعلَّق بالأسرة، ومن ذلك:

* التربية الأخلاقية للأسرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

وقد انطلق الإسلامُ إلى ميدان الواقع، فأرسى دعائمه القويمة؛ التي انتشرت في عدَّة محاور، ومن ذلك:

أولاً: المحظورات:

ومنها:

---

(١) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾: عَظُم بُغْضاً بالغ الغاية.

* القرض بالفائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

* خيانة الأمانة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

* السخرية والتنابز بالألقاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١١][1].

ثانياً: الأوامر:

ومنها:

* أداء الشهادة الصادقة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

* الوفاء بالعقد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

* تثمير أموال اليتامى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ثالثاً: الآداب العامة:

ومنها:

* الاستئذان قبل الدخول على الغير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ ﴾ [النور: ٢٧].

* حُسْن الجلسة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾: لا يَعِبْ بعضكم بعضاً. ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾: لاتَداعَوْا بالألقاب المستكرَهة.

* استعمال أطيب العبارات: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣][1].

وقد أكَّد القرآنُ على الأخلاق الدينية، وأعطاها بُعْداً عملياً، وهي أخلاق كثيرة، منها:

* الإيمان بالله وبما أنزل: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

* دوام ذكر الله وتسبيحه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

* التوبة إلى الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وهكذا نلاحظ أنَّ القرآن الكريم نزل ليكون منهج حياةٍ كاملة، ومنهج تربية صالحة، وفق معايير ثابتة، ومقاييس مضبوطة؛ انطلاقاً من الفطرة الإنسانية؛ حين يتَّصل القلبُ بالنبع الأصيل، فيهتزّ الكيان الإنساني، توجُّهاً خالصاً نحو المعرفة الحقة، فيخالط الإيمانُ النفوسَ، ويدرك الإنسانُ التعليمات العظيمة للقرآن؛ مما يؤدِّي إلى صُنْع الحياة وَفْق نُظُم الكتاب العزيز، وآدابه، وهدايته.

(د) نداء الناس:

ثمَّة آيات في القرآن الكريم فحواها: نداء الناس كافة، حول موضوع العقيدة، وتثبيتها في نفوس البشر، وما ذَلك إلاَّ للفصل الجازم بين مبدأ التوحيد وعنجهية الباطل، واستعلاء الحق على قوى الشر، وتحدِّياً للمشركين في مواجهتهم بالدعوة الربانية، وتوجيه النبي ﷺ إلى ترك

---

(١) ﴿يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: يُفْسِد ويُهيج الشَّرَّ بينهم.

المشركيـن يواجهـون مصيرهـم بعـد أن كذَّبـوا دعوة الله. قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

فالقرآنُ الكريمُ يعرضُ فضل الله تعالى بإنزال الفرقان؛ رحمةً للناس، ونعمةً عليهم، وفي ذلك بيانٌ لجوهر الرسالة السماوية، وتقرير مسألة الألوهية، وضرورة عبادة الله وحده.

وتأتي رحمةُ الله بالناس بإنزال القرآن شفاء لما في الصدور من غلٍّ وحسد وضغينة، وتحريراً للبشر من عبودية البشر، وتوجُّهاً خالصاً للخالق عز وجل، وإعلاءً للقيم الأساسية الإنسانية عند الإنسان، وهو ينقاد لما جاء من أحكام وتوجُّهات إلهية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي: لا يشكرون الله على نعمائه؛ إذ أنزل منهجاً مستقيماً يهدي الناسَ إلى الحق، ويُعزِّز مشاعرهم، ويدفع قواهم للتوازن بين الدنيا والآخرة، في منهجية فطرية، تتعامل مع شريعة الله حسب مقتضيات الدين القويم.

وقد نزل القرآنُ الكريمُ يخاطبُ الناسَ جميعاً في دعوته، ويُثبِّت النبيَّ محمداً ﷺ على يقينه وعبادته، على الرغم من عناد المشركين وتكذيبهم، واتِّباعهم منهجهم الضَّال في عبادتهم من دون الله؛ ذلك أن عبادة الله ضرورة لازمة، لا غِنى لأيِّ إنسانٍ عنها، فالخالق عز وجل هو المستحق للخضوع، والاستسلام، والتَّوجُّه، فلا يجوز الابتعادُ عن منهج الله، بل يتوجَّب الوقوفُ عند حدود التشريع، في توجُّه خالصٍ لله، ووفاء بالعهد، بينما ينهى القرآنُ الإنسانَ عن الشرك بعد الإيمان. قال عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٤ ـ ١٠٦][1].

ويُبيِّن القرآنُ الكريمُ أن النبي ﷺ ليس مُوكَّلاً بهداية الناس، فهو رسولٌ مبلِّغ عن ربه، وأمْرُ الإيمان راجعٌ إلى اختيار الناس وإراداتهم، فإنْ كَفر الناسُ، وأعرضوا عن الحق، فالصبرُ واجبٌ حتى يحكم الله بقضائه. قال عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٨ ـ ١٠٩].

وفي مقابل النعم يتوجَّب الإيمان. ولكي يتغلغل اليقينُ في النفوس؛ لا بُدَّ من تذكير الناس بتقوى الله، والخوف من عذابه، ومن أهوال اليوم الآخر، حيث لا ينفع مالٌ ولا بنون، ولا تُقْبَل شفاعةٌ من قريب أو نسيب، بل تُوزَن الأعمال، ويتمُّ الحسابُ دقيقاً، فمن اتقى اللهَ فقد فاز. قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقد أشار القرآنُ الكريمُ في نداء الناس؛ إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم؛ بأنه الرازق، ويتمُّ التعجب من انصراف بعض الناس عن الحق البيِّن لكل ذي قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣][2].

وهذا التذكيرُ تربيةٌ تدعو إلى العبادة، وشُكْر المولى على نعمائه،

---

(١) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اصرفْ ذاتك كلها للدين الحنيفي. ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الأديان الباطلة كلها.

(٢) ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: فكيف تُصْرَفون عن توحيده؟!

والتوجُّه إليه وحده بالحمد ، والامتنان؛ لِما أنعم اللهُ به وتفضَّل ، فلا بُدَّ من الاعتراف بالجميل ، وشكر الإحسان.

ثم إن الإسلام دعوةٌ عالمية للناس كافة ، فقد أمر القرآنُ النبيَّ ﷺ بإبلاغ دعوته للناس جميعاً ، فدعوةُ الإسلام لا تختصُّ بجيل ، ولا بعهد ، ولا بقوم ، ولا بأرض ، ولا بزمن ، فهي صافية ، منسجمة مع النفوس ، ملائمة لكلِّ الطباع ، خالية من الشوائب ، مُبرَّأة من النواقص ، فيها تعليم الناس وإرجاعهم إلى الفطرة السليمة.

ويُعـرِّف القـرآنُ النـاسَ بالخالق ، ويُبيِّن خصائصه لكلِّ البشر ، فهو الذي يُحيي ويُميتُ؛ لذا يستحقُّ أن يطيعَ الناسُ أوامرَه ، ويتَّبعوا منهجَه بعبوديةٍ خالصة ، صادقة. قال عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويُذكِّر اللهُ تعالى الناسَ بمسألة الخَلْق ، وأنَّ أصلهم من آدم؛ الذي خُلِق من تراب ، وخُلِقت ذريَّته من نطفة ، ثم من دمٍ جامد ، ثم من مضغة ، ثم صُوِّر الإنسان تصويراً تاماً ، وكلُّ ذلك ليبيِّن اللهُ تعالى كمالَ قدرته ، وليستدلَّ الناسُ أن القادرَ على الخَلْق قادرٌ على الموت ، ثم الإعادة يوم القيامة.

والله سُبحانه خَلَق الإنسانَ ضعيفاً ، طفلاً يخرج مِنْ بطن أمه ، فيعطيه اللهُ القوةَ والعمر؛ ليبلغ مرحلة الكمال والنضج والقوة ، فمن الناس مَنْ يموت قبل الرشد ، ومنهم مَنْ يُعمَّر فيهرم.

ثم إنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على جَعْلِ الأرض يابسة ، ثم مزدهرة ، ثم إرجاعها يابسة ، وهو سبحانه قادرٌ على خَلْق الإنسان ، وإماتته ، وإحيائه يوم القيامة للحساب.

وهذه المعاني ينبغي أن يدركها كلُّ الناس ، قاصيهم ودانيهم ، فيتَّقوا اللهَ ربَّهم ، ويعبدوه مخلصين له الدِّين. قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى

﴿رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧][(١)].

ويُذكِّر القرآنُ الناسَ جميعاً بأنَّ الله تعالى خلقهم من آدم وحوَّاء، وجعلهم شعوباً وقبائلَ من أجل الاجتماع والتعارف، وعمارة الكون، وإقامة الحضارة، لا مِنْ أجل الفخر بالنَّسَب والحَسَب، فحقيقةُ الفخر في الإسلام بالتقوى، وبهذا الميزان يتمُّ الفَصْلُ بين الناس، وتكريمهم عند خالقهم تبارك وتعالى، فهو سُبحانه الخبير بهم. يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد خَلَق اللهُ تعالى آدم، ثم خَلَق منه حوَّاء، وبعد ذلك نَشَر الناسَ منهما؛ عن طريق الزواج والتكاثر، فلا بُدَّ من تقوى الله؛ الذي يراقب الناس على أعمالهم؛ ليجازيهم بموجبها يوم القيامة. قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ولا بُـدَّ من تذكير الناس جميعهم بعدوِّهم اللدود «الشيطان» وضرورة الابتعاد عن طُرُقه، فهو يُزيِّن الأمور، ويوسوس في الصدور؛ لِيُبْعِد الخَلْق

---

(١) ﴿عَلَقَةٍ﴾: قطعة دم جامدة. ﴿مُّضْغَةٍ﴾: قطعة لحم قَدْر ما يُمْضَغ. ﴿هَامِدَةً﴾ ميِّتة، يابسة، قاحلة. ﴿وَرَبَتْ﴾: ازدادت وانتفخت. ﴿زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾: صِنْف حَسَن نضير.

عن عبادة الله تعالى ، ويجعلهم في ضيق وحرج . قال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٨ ـ ١٦٩] .

وإذا تذكَّر الإنسانُ أنَّ وَعْدَ الله بالبعث حقّ وواقع ، حينها يؤمن ، ولا تغرُّه الدنيا بمباهجها ومفاتنها ، ولايغرُّه حلم الله تعالى وإمهاله ، وأنه لا يستعجل عباده بالعقوبة ، بل يُعطيهم الأمل ، ويفتح أمامهم الفُسْحة؛ ليتوبوا ويُنيبوا إليه سبحانه . قال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] .

وحين يؤمنُ الناسُ بالله تعالى ، ويُفْردونه بالعبادة ، فإنه غنيٌّ عن خَلْقه ، لا يحتاجهم ، ومحمودٌ في صُنْعه وإبداعه ، والناسُ هم المحتاجون ، الفقراء إلى عطاء الله القادر . قال عز وجل : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ ـ ١٧] .

إذاً فخطابُ القرآن للناس كافة إنَّما المقصود منه تذكِيرهم بِنِعَم الله الكثيرة ، ودَفْعهـم إلى عبـادة خالقهم ، والإيمان بعقيدة اليوم الآخر ، وحثّهم على تقوى مولاهم ، فالقَصْد مِنْ خَلْق الإنسان واستخلافه في الأرض؛ إنما هو العبادة؛ بدليل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨] .

إن تربية القرآن للناس هي تربية متنوعة ، تقوم على العناية بتربية خُلُقهم ، ووجدانهم ، وإرادتهم ، وعبادتهم ، مع تربية أرواحهم ، وبثّ الفضيلة ، وتعويدهم الآداب السامية ، وتقريبهم من المولى الخالق جلَّ في علاه .

(هـ) نــداء بــني آدم :

يُذكِّر القرآنُ الكريم بني آدم بنعمة الله تعالى في اللباس الذي يواري

العورات ، والرياش المتَّخَذة للزينة ، ثم يُحذِّرهم من الشيطان الذي فَتَنَ أبوي البشر من قبل ، فهو عدوٌّ لدود عنيد ، فليحذره أبناء آدم لئلا يضلُّوا عن منهج الله تعالى.

ونداءُ بني آدم فيه تذكير بالنشأة الأولى ، وبالضعف الإنساني في مسألة التكليف ، وفي المواجهة مع قوى الشر المتمثِّلة بالشيطان ، وفيه كذلك الرحلة المديدة من الجنة إلى الهبوط على الأرض. قال عز وجل: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦][١].

ويُحدِّثنا التاريخُ أنَّ المجتمع العربي قبل الإسلام كانت فيه سيئات ، ومنها مشاهد العري في الطواف حول البيت العتيق ، فقريش سمَّتْ نفسها حُمْساً ، ويحقُّ لهم أن يطوفوا في ثيابهم ، أمَّا باقي العرب فيطوفون عُراة ، فمن أعاره الأحمسُ ثوباً طاف به ، ومَنْ كان عنده ثوبٌ جديد طاف به ، ثم رماه ، فلا يحقُّ له أن يأخذه ، وإلاَّ طاف عرياناً ، هكذا بلا ثياب ، لا فرق بين رجل وامرأة!

ومشهد العري فاحشة كبرى؛ لذا لا بُدَّ من التنبيه عليها ، والتحذير من الإقدام على ارتكابها ، ولا بُدَّ من مناداة بني آدم تذكيراً بأنَّ آدم عليه السلام حين عصى ربَّه بَدَتْ سوأته ، والمجتمع الجاهلي عندما عصى الرحمن ، واتَّبع خطوات الشيطان بَدَتْ سوآته ، فالتاريخ واحد ، والمشهد واحد ، والأسباب واحدة ، والنتائج لا تتغيَّر.

ويُذكِّر اللهُ تعالى بني آدم بأنه عز وجل أنزل اللباسَ نعمةً من لدنه؛ لستر العورات ، ومواجهةً لمشهد العري الفاضح المخزي ، وهذا تشريع محكم في نصِّ القرآن: ﴿أَنزَلْنَا﴾ أي: فرضنا وشرعنا.

---

(١) ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾: يستر ويُواري عوراتكم. ﴿وَرِيشًا﴾: لباساً زينة ، أو مالاً. ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان وثمراته.

وفي هذه المسألة تربية ودعوة إلى الحياء والستر والزينة ، واستقباح للعري وعدم الحياء ، فالحشمةُ دعوة سماوية ، وحُكْم دينيٌّ منصوص عليه ، وارتفاع ببني آدم عن عالم الحيوان البهيميّ ، وكل ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

ثم يُنادي القرآنُ بني آدم : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

وهذا النداء رحمةٌ ببني آدم ، وتحذيرٌ لهم من فتنة الشيطان ، وطرائقه ، وأحابيله ، ودعوةٌ لهم ألاَّ يستسلموا للغواية والشر؛ فالشيطان له وسائله الخفيّة ، فلا بُدَّ من اتخاذ الحيطة والتوقّي واليقظة؛ لمواجهة فتنة العري والتكشُّف .

والشيطانُ وليُّ الذين لا يؤمنون؛ يستهويهم ، ويطغيهم ، ويؤثِّر في تصوُّراتهم ، ويتغلغل في حياتهم ، وهذه حالة واقعية ، نجدها عند كثيرٍ من الناس .

ويؤكِّد القرآنُ الكريم نداءاته التربوية لبني آدم ، فيقول عز وجل: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣١ ـ ٣٣] .

وهذا النداءُ يخاطب بني آدم جميعاً ، ويدعوهم لأخذ الزينة ، والتمتع بها ، وبالطيبات ، وعدم العري ، وعدم تحريم اللباس الذي يُطاف به حول الكعبة ثم يُرمى ، ويدعو الله تعالى بني آدم لعبادته ، والوقوف عند تشريعه المحكم ، والبعد عن الفحش والمزاعم الباطلة .

كذلك يستنكر سياقُ النص القرآني تحريمَ الزينة ، التي أنزلها اللهُ تعالى

استمتاعاً بالطيبات ، وحلالاً من لدنه ، فتحريمُها أمرٌ مُستقبَح ، لا يجوز لأحدٍ الإدلاء بشيء ما دام اللهُ عز وجل قد أنزل حُكْمه ، وشرع منهجه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي هذا ردٌّ جازم على مشهد العُري ، والطواف بلا لباس ، وهذا الذي قد حرَّمه الله ، مُتمثِّلاً فيما يزاوله الجاهليون البعيدون عن المنهج ، وعن الاستقامة ، وهو انحرافٌ عن الفطرة ، وانتكاسٌ في حمأة الجاهلية العارية من القيم الراشدة ، والموازين الصائبة.

ومسألة اللباس قضية شرعية ، فالله تعالى قد شرع لبني آدم ما يصلحهم ، ويقود حياتهم نحو الكمال ، فأنعم عليهم باللباس؛ مِنْ باب إبراز العنصر البشري؛ بعيداً عن طوابع عالم الحيوان ، وسماته.

ثم إنَّ اللباس يتعلَّق بفطرة الإنسان ، والخُلُق الرفيع ، وبقبول التشريع من السماء ، وتنفيذ أحكام القرآن ، وكل ذلك يتعلَّق بالعقيدة والربوبية.

وهناك نداء آخر لبني آدم يتعلَّق بقضية تلقّي الأوامر، واتِّباع الشرائع، وتحديد الجهة والمصدر. قال عز وجل: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦].

وفي هذا دعوةٌ إلى اتِّباع منهج الله ، وما جاء به الرسل من تحريم الفواحش ، والدعوة إلى تحليل الطيبات ، فالله تعالى هو المشرِّع ، فمن آمن وأصلح فله الجنة ، ومَنْ أعرض وكفر فالنار أولى به.

وقد أَمَر اللهُ تعالى بني آدم على لسان الرسل أن يعبدوه ، ويُطيعوه ، ويعرضوا عن الشيطان ، فهو يُوقِع بينهم العداوة ، فمن واجب الإنسان إفراد الله بالوحدانية. قال عز وجل: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

وهذا وغيره مما يتعلَّق بالعقيدة والتشريع ، وأنهما من اختصاص الله عز وجل ، وما على البشر إلاَّ اتباع الحق ، والأخذ بالمنهج القويم ، وبمعطيات التربية القرآنية .

* * *